

## الفصل الثالث عشر التعليل والإيضاح

بعض آراء ميتافيزيقية - الطريقة المقارنة - أسباب الحوادث الخاصة - أسباب وراثية .

لا يستطيع الباحث في التاريخ أن يقف عند هذا الحد من البحث والدرس ، بل لا بد له من السعى إلى محاولة الوصول ، بقدر المستطاع ، إلى معرفة الأسباب والعوامل التي أدت إلى حدوث الوقائع التاريخية . والبحث في تعليل الحوادث وإيضاحها ، من العوامل التي تجعل دراسة التاريخ دراسة شائقة . وهو في ذلك يجتهد مثلاً في معرفة أسباب الحوادث العامة كارتفاع أمة وسقوطها ، وظهور حضارة ونموها وازدهارها وهبوطها أو زوالها ، كما يحاول أن يعرف أسباب الحوادث الخاصة مثل كسب معركة أو كشف طريق .

ولقد حاول بعض الباحثين ردّ الحوادث إلى العناية الإلهية التي تسيطر على العالم وتقود الوجود إلى غاية لا يعلمها إلا الله . وهذا تفسير علوي ، ولا يُستظر من الباحث في التاريخ أن يبحث العلة الأولى للوجود .

واستمد بعض الباحثين آراء ونظريات لتعليل الحوادث من الأصل الميتافيزيقي . فمن ذلك مثلاً الفكرة التي سادت عند تلاميذ هيغيل<sup>(١)</sup> ، مثل مومسون<sup>(٢)</sup> ،

---

(١) جورج فيلهلم فريدريش هيغيل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel، ١٧٧٠-١٨٣١) الفيلسوف الألماني . ولد في اشتوتجارت . آثر دراسة التراث القديم على اللاهوت في توبنجن ، وكان من أنصار حرية الفكر . ودرس المسيحية الأولى واعتبر المسيح ابناً لماريا ويوسف . واعتبر الكنيسة والدولة والقانون والأخلاق والتجارة والفن عناصر فعالة جميعاً في حياة المجتمع وليست عناصر منفصلة كما هي على يد المختصين . علم في كثير من جامعات ألمانيا . ومن مؤلفاته «أصول القانون» و «فلسفة الدين» و «علم المنطق» و «الفينومينولوجيا» و «فلسفة التاريخ» . والتاريخ عنده هو تاريخ الفكر الإنساني وقسم التاريخ ثلاث دورات أو مراحل : المرحلة الشرقية والمرحلة الكلاسيكية والمرحلة الجرمانية ، ولكل مرحلة رسالة تؤذيها .

(١٩٥) تيودور مومسون (Theodor Momson، ١٨١٧-١٩٠٣) المؤرخ والأركيولوجي الألماني . ولد في شلزويج . درس في كيل وفي إيسليا . وعلم في ليبزج وغادر ألمانيا لأنه كان من مؤيدي الملكية . وعاش في زوريخ ثم عاد إلى برلين . ومن آثاره «تاريخ روما» و «القانون الدستوري الروماني» . استار بدفته في البحث والتحرر وفي استنتاجاته وتعميماته وفي تتبع آثار الفكر الإنساني على الحياة السياسية والاجتماعية . وحصل على جائزة نوبل في الآداب في ١٩٠٢ .

وميشليه<sup>٥</sup> ، وهي التي تقول بأن كل حادث تاريخي هو في الوقت نفسه حادث عقلي ، يقع طبقاً لخطوة منطقية عامة ، وإن لكل حادث مبررات وجوده . وله دور خاص في تقدم المجتمع الإنساني . فالنظم مثلا وجدت لفائدة المجتمع وتلبية حاجاته ، وبذلك يعلل ظهورها ونموها وتطورها . ومع ذلك فلا يمكننا أن نخرج من ذلك بقاعدة ثابتة ، إذ لا تدل حوادث التاريخ على أنها حدثت دائماً بطريقة عقلية منطقية ، أو بطريقة تحقق أكبر نفع ممكن للإنسان . وفي بعض الأحوال يأتي التغيير بنتائج على عكس ما كان يُرتجى ويؤمل منه ، أو على الأقل يأتي بنتائج لم تكن متوقعة . كما أنه لا يُعرف في بعض الأحيان فيم النفع وفيم الضرر على وجه التحديد .

ومن هذا المصدر الميتافيزيقي وُجدت أيضاً النظرية الميجيلية الخاصة بـ«الأفكار» أو «الصور» التي تتحقق في التاريخ بواسطة الشعوب المتتابعة ، والتي نشرها ميشليه في فرنسا ، وعُرفت في ألمانيا بنظرية «الرسالة التاريخية» للأشخاص والشعوب . وكذلك اشتق من هذا المصدر الميتافيزيقي ، نظرية تقدم المجتمع المطرد . وصحيح أن المجتمع يعيش في تغير وتحول مستمر بصورة عامة . ولكن هذا التغيير لا يعنى أنه يتجه دائماً نحو التقدم . ولا تدل دراسة التاريخ على حدوث تقدم عام واحد مستمر بالنسبة للبشرية كلها ، ولكنها تدل على وجود عدد من حركات التقدم الجزئية في نواح من حياة المجتمع ، يعقبها أحياناً فترات اضمحلال وهبوط . ولا يمكننا أن نستخلص من هذه الدراسة أسباباً ثابتة تؤدي حتماً إلى نتائج معينة .

وقد حاول بعض الباحثين في التاريخ اتباع طريقة العلماء الطبيعيين ونحوهم ، لمعرفة أسباب الحوادث . فقاموا بمقارنة مجموعات من الحقائق ، لاكتشاف أي الحوادث يقع في نفس الوقت ، ويكون الارتباط بينها قوياً . فيدرس الباحث مثلا ناحية من تاريخ النظم أو العقائد ، ويقارن بين أوجه تطورها في عدة مجتمعات ، لكي يحدد اتجاه تطورها العام ، بقصد الوصول إلى معرفة السبب المشترك الذي يرجع إليه ذلك التطور . وعلى ذلك ظهرت أنواع من الدراسات التاريخية المقارنة ، مثل دراسة فقه اللغة المقارن ، والأساطير المقارنة ، والقانون المقارن ، والنظم المقارنة ،

والأدب المقارن . . وحاول بعض الباحثين في أوروبا استخدام الإحصائيات في هذه الدراسة المقارنة زيادة في الدقة .

ولكن هذه الطريقة لا تصل دائماً إلى معرفة كافة الأسباب الحقيقية للحوادث ، لأنها قد تنطبق على حالات مفردة ، أو تقوم على تشابه ظاهري ، وبخاصة أن الحالات لا يمكن أن تتشابه تشابهاً مطلقاً ، ولا بد من وجود عناصر للتفاوت والاختلاف فيما بينها . وكذلك لا يستطيع الباحث في أحوال كثيرة أن يعرف كل الظروف التي وقعت خلالها الحالات التي هي موضع المقارنة ، لانتشارها وامتدادها في الزمان والمكان ، مما قد يحمله على التسرع في استخلاص النتائج التي يصعب التثبت من حقيقتها .

وقد تؤدي دراسة التاريخ إلى استخلاص بعض القوانين التجريبية ، التي تدل على وقوع حوادث متتابعة ، ولكنها لا تفسر وقوعها دائماً التفسير المنطقي الصحيح . ومن المعلوم أنه في حقائق التاريخ - بعكس حقائق العلوم الطبيعية وأصراها - قد تتضافر عدة أسباب للوصول إلى نتيجة ما ، كما أن ذات الأسباب قد لا تؤدي إلى نفس النتيجة في ظروف أخرى . وأحياناً ربما يؤدي سبب ما إلى نتيجة معينة في بيئة معينة ، ولكن نفس السبب ربما يؤدي إلى نتيجة مختلفة أو عكسية في بيئة أخرى .

وفي أحوال كثيرة يستطيع الباحث أن يعرف جزءاً من أسباب حوادث التاريخ الخاصة ، وذلك من الأصول التاريخية التي يعتمد عليها والتي يسجلها واضعو الكتب التاريخية على النحو الذي فهموه ، مثل سبب النصر أو الهزيمة في معركة حربية . ومن البديهي أن معرفة الأسباب في حوادث التاريخ تستلزم تتبع الفترة السابقة التي مهدت لها ، لمعرفة العوامل المباشرة وغير المباشرة ، التي أدت إلى وقوعها وسيعرف الباحث خلال دراسته للظروف التي وقعت في أثنائها تلك الحوادث ، مثل الظروف السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو الحربية أو الشخصية . . . ، سيعرف شيئاً غير قليل من الأسباب التي تفسر تلك الحوادث .

والباحث مضطر أحياناً لأن يضع بعض الفروض التي يتخيلها من ظواهر الحقائق التي تعرض له ، ويحاول أن يجد التعليل أو التفسير الذي يناسب هذه الفروض واحداً فواحداً ، حتى يصل إلى ما يقنعه . ولكن ينبغي ألا يخضع لفكرة

واحدة أو لنظرية محدّدة ويحاول أن يعلل على أساسها الحوادث التي يصل إليها لأنه في هذه الحالة يحتمل الحقائق أكثر مما تحتمل ، كما يفعل بعض التحمير لفكرة سياسية أو لنظرية اقتصادية أو لمذهب ديني معين . . ويكون ما يكتبه في هذه الحالة غير معبر عن الحقيقة التاريخية في ذاتها ، بل يكون معبراً عن لون تفكيره ونزعتة وهواه ، كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق .

وعلى أية حال فليس من الممكن أو السهل دائماً معرفة أسباب الحقائق التاريخية بدرجة واحدة . فقد تُعرف أسباب بعض الحوادث بسهولة ، لإمكان معرفة الظروف التي أحاطت بها ، على حين لا يمكن أو لا يسهل معرفة أسباب بعضها الآخر على وجه الدقة لغموض الظروف التي أحاطت بها ، واختلاط الأصول والروايات بشأنها ، على نحو يجعل الوصول إلى الحقيقة أمراً متعذراً أو عسيراً ، مهما اجتهد الباحث في البحث والتحري والاستقصاء . وهل يعتمد واحد من علماء التاريخ أنه من الممكن جلاء الأسباب التي أدت إلى ظهور عصر عظيم كعصر النهضة في إيطاليا ، الذي امتد أكثر من قرنين من الزمان ، فيما بين نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث ؟ لا شك أن المؤرخين من مختلف الأمم المتحضرة قد درسوا هذا العصر العظيم ، وتتبعوا كافة العوامل والمؤثرات القريبة والبعيدة التي أدت إلى حركة النهضة ، وقدموا إلينا محصولاً ضخماً يتناول مختلف أوجهها ومظاهرها ، ولكن هل أمكننا معرفة كل شيء عنها ؟ وهل يمكن أن ندرك أسرار البشرية والوجود كافة ؟ كلا ، إذ سنظل أشياء كثيرة منها غير قابلة للتفسير الكامل المنفع . وما على الباحثين سوى أن يدرسوا ويجهدوا إلى أقصى ما يستطيعون أبداً .

ويلاحظ أنه من الممكن أحياناً أن نعرف الأسباب التي تؤدي إلى الحوادث العامة في التاريخ ، بموازنة الحاضر بالماضي . ويمكن الاستعانة في ذلك بما يلي :

١ - لمعرفة أسباب العادات أو النظم أو الآراء في مجتمع ما ، ينبغي أن يركز الباحث ببحثه في المراكز المحددة التي طُبِّقت فيها هذه الأمور ، وذلك بدراسة الرجال والبيئات التي ظهرت فيها ، وقد يجد الباحث أن الوحدة والتشابه قويان في ناحية منها ، كما في الحالات الاقتصادية ، مثل حياة العمال في المصانع . ولكن التشابه قد يقل وتظهر فروق متنوعة ، وقد تختلف العادة الواحدة من رجل إلى آخر

في المجتمع الواحد ، كما في النواحي العقلية ، مثل المسائل التي تتعلق بحياة الشعراء ورجال الفن وآثارهم . فلا بد من ملاحظة أوجه الاختلاف أو التفاوت ، حتى لا يحكم الباحث على شاعر بحكمه على الشعراء المعاصرين له ، وحتى لا يفسر أعمال فنان بأعمال فنان آخر ، إذا لم يكن هناك ما يبرر ذلك .

٢- ولكي يحدد الباحث الأسباب التي تؤدي إلى تطور ما ، من الضروري أن يدرس البيئة التي حدث فيها ذلك التطور أو التغيير ، فيلمّ بالظروف التي أحاطت بها . إذ قد تحدث تغيرات في ظروف البيئة نفسها ، كجفاف بعض المناطق المطيرة ، أو تحوّل طريق التجارة من مكان لآخر ، مما يترتب عليه فقر بعض البلاد وغنى بعضها الآخر . وكذلك ينبغي على الباحث أن يدرس الإنسان ، وهو الكائن المتطور . ونلاحظ نوعين من التغيير الذي يصيب الإنسان : فإما أن يبقى الأشخاص أنفسهم ، ولكنهم يغيرون من طرق تفكيرهم وعاداتهم وأعمالهم ، اختياراً أو تقليداً أو قسراً وكرهاً ، وإما أن يزول من الوجود الأشخاص الذين مارسوا عادات معينة ، ويحلّ مكانهم أشخاص جدد لم يمارسوا هذه العادات ذاتها ، وقد يكونون أجناب جاءوا عن طريق الهجرة أو الغزو والفتح ، أو ربما يكونون أحفاد الأشخاص الذين زالوا من الوجود ولكنهم تعلموا بطرق جديدة .

وتبقى ناحية جديدة بالنظر . فهل كل الرجال متشابهون ؟ وهل يختلفون في الظروف التي عاشوا خلالها من ناحية التعليم أو الثروة أو نوع الحكم الذي خضعوا له فحسب ؟ وهل يتغير المجتمع - إلى أحسن أو إلى أسوأ - وهل تتأثر حوادث التاريخ بتغير هذه الظروف وحدها ؟ أليس هناك أشخاص توجد بينهم فوارق وراثية ، فيولدون ولهم اتجاهات وميول وملكات متفاوتة ، تقوى وتنمو بحسب البيئة التي يعيشون فيها ؟ فالفوارق الطبيعية بين أفراد البشر ، وظروف الحياة التي تنمى هذه الفوارق . هي من عوامل التغيير في المجتمع ، وهي من أسباب حوادث التاريخ . فعلى الباحث مراعاة الأسباب الأنثروبولوجية والفسبولوجية والسيكولوجية التي تفسر حوادث التاريخ ، بناء على نوع الجنس وصفاته الجسدية والعقلية والنفسية .

وعلى ذلك فإن للعامل الشخصي أثره الواضح في تحليل حوادث التاريخ .

فأبطال التاريخ أو الرجال صانعو التاريخ قد استطاعوا أن يؤثرُوا في مجرى التاريخ لتوافر الصفات التي جعلتهم قادرين على التأثير في مجرى الحوادث ، بحسب التيار العام الذي هم إحدى نتائجه ، سواء أكان ذلك بإدراك مشاكل البيئة التي عاشوا فيها . ونجاحهم في تحقيق حاجاتها ، أم بإحساسهم بمشاكل بيئتهم وسعيهم إلى إصلاحها دون أن ينجحوا في ذلك ، أم بسعيهم على نحوٍ أساسيٍّ إلى تحقيق أهوائهم ومطامعهم الشخصية .

ولا بد من توافر الظروف الملائمة التي تُمكن هؤلاء الرجال من العمل . وكل الأشخاص الذين كانت لهم عيون ترى ، وآذان تسمع ، وعقول تعي ، وقلوب تحفق . استطاعوا أن يؤثرُوا بصورةٍ أو بأخرى في الظروف المناسبة في مجرى التاريخ .